وقفة مع ديوان " أنا الجاني"

للشاعر شفيق حبيب

الناقد / شاكر فريد حسن

"أنا الجاني" هو عنوانُ الدّيوان الشعريّ الأخير للشاعر شفيق حبيب والذي أهدانيه مشكورًا، وشفيق ليس بالاسم الجديد المطروح، وإنما هو من الوجوه الأدبية الفلسطينية المخضرمة والمثابرة الملتصقة بالأرض والتراب وبصخور وحجارة الوطن، عانى من التعتيم ولم يُسوَّق إعلاميًا ردحًا من الزمن وتعرّض للاعتقال والتعذيب والإقامة الجبرية بسبب ديوانه "العودة إلى الآتي" الذي يتغنى بالانتفاضة وبشهداءِ الحجارة، وكان قد صدر له سابقًا ثلاثةَ عشرَ ديوانًا شعريًا وهي – قناديل وغربان – مأساة القرن الضليل – دروب ملتهبة – وطن وعبير – أنادي أيها المنفى – أحزان المراكب الهائمة – الدم والميلاد – العودة إلى الآتي – ليكونَ لكم فيَّ سلام – آهِ يا أسوار عكا !! – تعاويذ من خزف – لماذا..؟؟ - وصارخ في البرِّيَة.

رُؤى ديوان "أنا الجاني" ومضامينه موزّعةٌ ومنوعةٌ بين الوطنيّ والمناسباتيّ والدّفقِ الوجدانيِّ الإنسانيّ، وهي تصوِّرُ الحالةَ العربيةَ الراهنةَ، والوضعَ الفلسطينيّ العامّ والهمومَ الوطنيةَ والقوميةَ وأحلامَ شعبنا في الحرية والاستقلال الوطنيّ وتعبِّر عن إحساسه الفاجع بالحياة ومشاعر الألم والإحباط والمرارة وخيبة الأمل التي يعيشها جرّاء ما آلت إليه الأوضاعُ العربية من تردّ وتخاذلٍ وهزيمةٍ وخنوع، فيصرخ في وجوه القادة والحكام العرب المتخاذلين والمتواطئين قائلاً :

يـــا قـــادةَ القطعـــانِ!! مـــا أنـــتم ســـوى
قِطـــعٍ علـــى قِطـــعٍ مـــن الأخشـــابِ
أضـــحى كيـــانُ عـــروبتي وعقيـــدتي
تمثـــالَ شمْـــعٍ في اللـــهيبِ مُـــذابِ
يـــتكلمُ الحجـــرُ الجـــريحُ منافحًـــا
وملأتمـــــوأفـــــواهكم بـــــترابِ
صـــمتَ الزُّنـــاةُ فأرضُـــنا محروقـــةٌ
والنـــارُ تأكـــلُ أحـــرُفي وكتـــابي

ويُعرّي الفسادَ والنفاقَ والرياءَ المتفشّيَ في المجتمع العربي، ويكتبُ بالجمر الحارق عن الجرح الفلسطينيّ الدامي والقدس المتألمة وعن الذلّ والهوان ووعي الأمة العربية المفقود:

لم يبـــقَ في حاضـــري شـــيءٌ أقدّسُـــهُ

أضـــحيتُ بـــين الـــورى عنـــوانَ إجـــرامِ

الـــذلُّ في الشـــرقِ مـــوروثٌ نتيـــهُ بـــه

ســـائلْ فلـــولَ قيـــاداتٍ وحُكّـــامِ

يـــا أمّـــةً نشـــرتْ يومًـــا حضـــارتها

مـــالي أراكِ بـــإظلامٍ... وإعتـــامِ

مـــالي أرى شمسَـــكِ الغـــرّاءَ غاربـــةً

كيـــف المصـــيرُ إذا مـــا انهـــارَ أقـــوامي؟

ويبكي بغدادَ العزّ والمجدِ والتاريخ وشعلةَ العلم وبصرةَ النور وكربلاءَ الطهر ونجفَ الأشراف ويتساءل بحرقة وألم :

يـــا دجلـــةَ الخـــير ! مـــاذا حـــلّ والهفـــي

عـــاث التتـــارُ دمـــارًا حيثمـــا انتشـــروا

أرضُ الحضـــارات نـــاءَت تحـــتَ مغتصِـــبٍ

مـــا مـــن مُجـــيرٍ ونـــارُ الحقـــدِ تســـتعرُ

عـــادت جحافـــلُ هولاكـــو تمزّقهـــا

لا خـــيرَ في أمّـــةٍ تـــذوي وتنكســـرُ

ويحكي عن أطفال فلسطين، زنابقِ القبورِ وينابيعِ المستقبل، ويسألُ عن صَمْتِ الشعراء في هذا الزمن الرديء الذي تداس فيه الكراماتُ وتضرب الهاماتُ وتصادرُ الحرِّيات، ويخاطِبُ المسيحَ ابنَ الإنسان ورسولَ السلام ومبعثَ إشراقةِ النورِ في عصور الظلام ويستغيثُ به ليُخلصَ شعبَه وأمته من القهر والظلم والمعاناة النفسية والجوع الكافر...

أيهـــا المـــاردُ القـــويُّ أجرْنـــا
نحـــن في خنـــدقٍ ظلـــومِ المقـــامِ
أنـــت نـــورُ الـــدُّجى إذا جـــنَّ ليـــلٌ
أنـــت حـــقٌّ يُبيـــدُ نـــارَ الخِصـــامِ
أنـــت نـــورُ الحيـــاةِ في كـــلِّ عصـــر
أنـــتَ بـــدْءٌ وأنـــت مِسْـــكُ الخِتـــامِ

ويذرفُ الدموعَ على فيصل الحسيني الفارسِ الذي رحلَ بشموخٍ وإباء وعانقَ أمجادَ القِنن وعاش مسكونًا بعشق الأرض والتاريخ والقدس وعاد محمولا في كفن ويحزن لرحيل توفيق العفيفي (أبو أحمد) السابح في طيفه بين الأحبة كالنسائم فوق كل الأمكنة، ويتألم لموت وغياب الشاعر شكيب جهشان، شاعرِ مجدِ الحرف الذي كتب بحروف من دم ملحمةَ شعبه الذي يحرقه لهبُ النيران ويُدميه العدوان، ويشدو لملائكيّة الصوت

الملائكي الساحر والأخاذ فيروز التي تسكرنا وتشجينا بأنغامِها وألحانِها وبوشوشات نجوم الليل، ويبعثُ برسالة حبٍّ وودّ للأمهات في عيدهن السعيد في آذار...

وتمتاز قصائدُ الديوان بالتنوّع في بنائية النص وبالوضوح والبساطة والسلاسة ووهج المشاعر والانفعالات والدفء الإنساني الحميمي والعفوية الجميلة، وفيها حِدَّةٌ وانفعالٌ وتوترٌ ورونقٌ وجماليةٌ وقدرةٌ تعبيريةٌ تمسّ أعمقَ المشاعر وتتجلى من خلالها العاطفةُ الوطنيةُ المشبوبة الملتهبة والصادقةُ وفيضُ المعاني والصّورُ الجذابة والخلابة وبلغة أحلى من تمْر أريحا وبيسان كما أنها تزخرُ بالدلالات والإشارات والتوصيفات والتشبيهات والمفردات الحية والتعابير الشفافة التي تواكبُ ركبَ الحداثة والتطوّر، بالإضافة إلى توظيف الرموز والأسماء التاريخية.

شفيق حبيب الشاعرُ المتألمُ والغاضب، غنيُّ الإحساس ويخوضُ غمارَ المعركةِ لتحرُّر الإنسان العربي من أحكام المجتمع وتقاليدِه ومن قيودِ الظلم والخنوع ويمثل الحسَّ الوجدانيَّ الفلسطينيَّ، وقصائدُه تصلُ إلى قلوب الناس بدون وسائطَ نقديةٍ ونستشفُّ فيها الحزنَ والشجنَ والأنينَ والمرارةَ والتحدّيَ والغضب، وهو صادقٌ إلى أبعد الحدود ويكتبُ بسلاسةٍ وتلقائيةٍ وبساطةٍ وصدقٍ متدفق، ومعانيه معبرةٌ وجُمَلهُ

مموْسَقة وأبياته موزونة، والقضايا الوطنيةُ والقوميةُ والسياسيةُ المختلفة، هي شاغلهُ الشاغل وتطغى على قصائده..

وأخيرًا يبقى القول : إن ديوان " أنا الجاني " إضافةٌ جديدةٌ لشعرنا الفلسطينيّ الوطنيّ والسياسيّ والاحتجاجيّ وهو ومضاتٌ شعريةٌ تنمُّ عن موهبةِ الشاعر وسيطرتِه على مجريات نصِّه، وإننا نرحِّبُ بالديوان ونتمنى للشاعر شفيق حبيب دوامَ العطاءِ والإنجازِ الإبداعيّ...

حديث الناس النصراوية

١٨-١١-٢٠٠٥